الاسباب والمسببات في القرآن الكريم

م. د. أركان علي حسن م.م. ولاء صباح توفيق
الجامعة المستنصرية/ كلية التربية / قسم علوم القران والتربية الاسلامية

المقدمة

الحمدُ لله رب العالمين وأفضل الصلاة واتمم التسليم على سيد الاولين والآخرين أبي القاسم محمد وعلى الهِ الطيبين الطاهرين وصحابتهِ الغر الميامين.

وبعد....

فقد تبادر للذهن أن نخوض في موضوع لهُ غاية الاهمية لطالما تناولهُ القران الكريم ودل عليه دلالة واضحة إذ بيَّن لنا أن كل شيء يحدث في هذا الوجود بسبب، سواء كان هذا الحدث أو الفعل مُتعلقٌ بالإنسان أو الحيوان أو بالنبات أو بالجماد أو بالظواهر الكونية المادية أو بالأجرام السماوية أو غير ذلك من الحوادث المختلفة، فكل ذلك مرتبط بقانون إلهي يدعى "**قانون السببية**" أي ربط الاسباب بالمسببات وكذلك ربط النتائج الصادرة بالمقدمات، لذا فأن هذا القانون شامل وعام لكل ما في هذا العالم من جزئيات، وهذا القانون يشمل على وجه الخصوص الانسان كونهُ على محك مع الاشياء والموجودات في الحياة الدنيا بل والآخرة ايضاً. لذا نجد أن حكمت الله تعالى قد اقتضت أن يربط اسباب الفعل والحدث بالمسببات.

ونحن بنو البشر في هذه الدنيا ربما يحدث امر ما فنجد كثيراً من الناس يقول أن هذا الشيء حدث صدفة، وبمرور الزمن يمر ذلك الحدث أو اللفظ على اسماع عامة الناس ويستقبلونهُ وكأنهُ كلام صحيح، ولكن الواقع أن هذا الامر ليس صحيحاً وليس لهُ المدلول الواضح لهذا الفعل، فقولنا أن ليس في هذا الكون مكان (للصدفة) بل أن هناك توظيف وقيادة تخفى على الناس، وهنالك اسباب ومُسببات وكذلك نتائج مسبوقة بمقدمات، وما يسمى (صدفة) ما هو في واقع الحقيقة فعل أو حدث قد جهل الناس اسبابهُ، علماً أن الجهل بالشيء لا يعني عدم وجود ذلك الشيء، لان هذا الكون الواسع والعجيب الصُنع خلقه الله واحسن في كل شيء خلقه يُدار بموجب الاسباب والمسببات وهذا القانون في غاية الدقة والشمول والاحكام، بحيث لا يخرج عن مساره شيء ولا يفلت من عدلهِ مخلوق، وهذا القانون الالهي والعام قد سماه الله في القران الكريم بـ (سنه الله) لا يقبل التبديل ولا التحويل اشارة لقوله تعالى ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ الفتح /23.

المبحث الاول/ السبب

المطب الأول/ تعريف السبب

اولاً/ تعريف السبب لغة: عبارة عن طريق قال تعالى ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴿٨٩﴾﴾الكهف/89 أي طريقا.

وقال إخبار عن فرعون ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ غافر/36 اي ابوابها وطرقها.

ويسمى الحبل سببا لأنه طريق يتوصل به إلى الحاء، ويسمى الطريق سبباً أيضا لأنه يتوصل به إلى الموضع المقصود(1).

وبصورة عامة السبب كل شيء يتوصل به إلى غيره أو إلى مقصودٍ ما(2).

ثانياً/ تعريف السبب اصطلاحاً: هو ما يحصل الشيء عنده لا به، فالنار يحصل الإحراق عندها لا بها إذ أنها أي النار سبب والمحرق هو الله سبحانه، وهو عقلي كالنظر للعلم عند بعض العلماء أي يحصل العلم عند النظر، وشرعي كالتكلم بصيغة الاعتاق عند الكلام بالصيغة، وعادي أي انه سبب عادي مثل النار فهي سبب وعند وجودها يخلق الله الإحراق ولغوي كالأسباب الداخلة في حيز حرف التعليل(3).

وفي اصطلاح الاصوليين: هو ما يضاف الحكم إليه لتعلق الحكم به من معرفة الحكم أو غيره(4).

(وذلك مثل الزنا هو سبب لوجود الحد والإسكار سبب لحرمة الخمر والزوال سبب في وجود صلاة الظهر)(5).

فيتبين لنا ان هناك صلة وعلاقة بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي إذ ان السبب في اللغة ما يتوصل به الى الموضع المقصود، وفي الاصلاح حصول المقصود عنده لا به فكلا المعنيين يفيد أن وجود السبب أولا حتى نحصل على المقصود أو المطلوب وهو المسبب.

المطلب الثاني/ الاسباب والإرادة الإلهية

إن جمع الممكنات بلا شك داخله في حيز الإرادة الالهية التي لا يُعصى منها شيء على الله جل جلاله.

لكن نازعت المعتزلة أهل السنة والجماعة من الاشعرية وأوردوا شُبهات حول أرادة الله تعالى لجميع الممكنات ويمكن أن نصور شبهتهم بالسؤال الاتي هل أن الله مُريد.

فإذا قلنا نعم، فإنا نسألكم أيضا هل يريد الشرور والقبائح فاذا قُلتم لا، فقد خرجتم عما ذهبتم اليه من انه مريد، وإذا قلتم نعم، فان هذا نقص في حقه تعالى، لان مريد الخير خير، ومريد الشر شرير وهكذا(6)....

وحاصل الجواب على تلك المسائلات التي اوردها المعتزلة ينبغي لنا في بداية الحال أن نعرف إن الحسن والقبح لا يخلوا من كونه مندرجا نحو ثلاثة معان:-

1. ان الحسن صفة الكمال كالعدل، والقبح صفة النقص كالظلم.
2. أن الحسن ما كان ملائم للغرض كموت العدو، والقبح ما كان منافيا للغرض كموت صديق.
3. الحسن تعلق المدح عاجلا في الدنيا وتعلق الثواب اجلا في الاخرة(7).

وهذا المعنى الثالث هو محل النزاع فهو عند الأشاعرة شرعي وذلك لأن الافعال كلها سواسية، ليس شيء منها في نفسها بحيث يقتضي مدح فاعله وثوابه ولا ذم فاعله وعقابه وإنما صارت كذلك بوساطة أمر الشارع ونهيه عنها.

وعند المعتزلة عقلي فأنهم قالوا: للفعل في نفسه مع قطع النظر عن الشرع جهة محسنة مقتضية لاستحقاق فاعله مدحا وثوابا أو مقبحة مقتضية لاستحقاق فاعله ذماً وعقابا، ثم أنها اي تلك الجهة المحسنة أو المقبحة قد تدرك بالضرورة من غير تأمل وفكر كحسن الصدق النافع، وقبح الكذب الضار، فأن كل عاقل يحكم بها بلا توقف وقد تدرك بالنظر محسن الصدق الضار، وقبح الكذب النافع، وقد لا تدرك لا بالضرورة ولا بالنظر، ولكن إذا ورد به الشرع علم أنه ثمة جهة محسنة كما في صوم رمضان حيث اوجبه الشرع أوجهه مقبحة كصوم اول يوم من شوال حيث حرمه الشرع فأدرك الحسن والقبح في هذا المقام موقوف على كشف الشرع عنها بأمره ونهيه(8). ومما يرد على المعتزلة هذا المقام ما يلي:-

انتم تقولون ان اقبح الكذب ذاتي، وصفة القبح لازمة لذاته فيجب الا تتخلف تلك الصفة عن هذا الذات، لكننا نرى أن الكذب قد يحسن اذا كان فيه عصمة دم نبي من ظالم، ودم تاركه قطعا وكذا يحسن الكذب إذا كان فيه انحاء متوعد بالقتل ظلما(9).

أذن ما كان حسنا وما كان قبحا أنما هو أثار مناط الشرع، مما أمر به أو نهى عنه، فان العقل لا يمكن أن يستظهر معاني الحسن والقبح في الأشياء وهذه عقيدة أهل السنة والجماعة المفضية إلى القول بأن الاشياء لا تنطوي بذاتها على شيء من الحسن والقبح بل هي فارج ما هية ذلك الشيء:-

وما عرفنا بالأشياء حسنا أو قبحا إلا من تناسب وانسجام بعضها مع بعض وان تلك الصفات الحسنة او القبيحة راجعة لبواعث خارجة عنها وأن الأشياء كلها بالنسبة لبدا الخلق سواء، لكن امر الله به فحسن ونهى الله به فقبح(10). ومن جهة الخلق نعلم أن الله خالق كل شيء وما من شيء قديم من الله فالقديم واحد، وهو الله وكل ما سواه حادث ومن هذا صح بالأجماع(11). والحق أن يقال :- الله خالق كل شيء.

ولا يصلح أن يقال خالق القاذورات القردة والخنازير، والأشياء القبيحة مع كونها مخلوقة له إنفاقا.

بل يقال على سبيل الإجمال أن جميع الموجودات مخلوقة لله لا على التفضيل، من انه خالق كذا من الجيف أو الأقذار وذاكراً التفضيل بذلك فأنها تذكر بقرينة تليق به جل جلاله حتى يصل بنا القول بأن الله أراد الكفر من الكافر كإسباله شرا قبحا منهيا، كما أراد الإيمان من المؤمن كإسباله خيرا حسنا مأمور به(12). ولا يقال أن مُريد الخير خير ومُريد الشر شرير، فأن هذا باطل بمفاد ما لو سُئل

إنسان هل يمكن القول بأن مُريد العلم عالم ومُريد الجهل جاهل ومُريد الصلاة مصلٍ ومُريد الحركة متحرك؟

هذا مما لا شك في بطلانه أذا يلزم من كونه الأنسان مريد الشيء كونه متحققا فيهِ....!!!

ومما ينبغي أن يدرك في مكان الحسن والقبح:-

أن خلق الشر ليس قبحا بل القبح أن يكتسب الأنسان بمحض ارادة وهو يدري أن هذا شر، فحقيقة القبح لا تتضح جلية الا عند اكتساب العبد لها واختيارها بمحض ارادة ولعل من ظاهر حكمته تعالى من خلق الشر ما جاء في قوله تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾الانبياء/35

فالشر صار كقاعة الامتحان التي لا يمكن معرفة الناجح من غيره إلا بها وان الشر وجوده يُعد المطرق والمسن للمعدن الأصلي للإنسان ووجود الخير وحده دون الشر ووجود الأمور الحسنة دون السيئة لا يمكنها أن تميز معدن الانسان ولا ان تقيس درجة أيمانه وصبره، فطريق الله معروف ومحفوف بالمكاره وإذا أراد الله أن يمحص الصادق من غيره فانه يريد أن يقيم المعجزة علينا بأشياء تتميز بها حسنا أو قبحا من خلال ما نكسبه اذا هو يعلم بنا ولكن جرت سنة الله بخلق الشرور وامثالها حتى يتجلى اسم الله الأعظم(العادل).

المطلب الثالث/ الاسباب والمسببات وعلاقتها بالخالق المريد

ان لغة الانسان لهذا الكون الذي يعيش فيه جعله يرخي العنان ليفكر في معظم مظاهره وظواهره، وقد امتدح الله هؤلاء فاطلق عليهم امتدادا أنهم أولوا الالباب فقال ﴿ان في خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾ (آل عمران/190) وأولي الالباب هم اصحاب العقول الذين يتفكرون(13) في هذا الخلق.

من بين ما شغل الإنسان قديماً وحديثاً توقف بعض الممكنات على بعض كتوقف الولد على الوالد وتوقف النبات على البذرة والماء والعناصر والعناية والبيئة المناسبة، وتوقف الإمطار على تصاعد البخار من البحر(14). وأن وجود البصر(15). وتحققه في الانسان وكذلك السمع(16). والذوق(17). متوقف على وجود وصلاحية الانسان، وأن الشبع والارتواء لا يحصلان ألا بعد عملية الاكل والشرب، وأن الاحراق لا يحصل الا اذا وجدت اسبابها أي النار وخلو موانع الاحراق فرأى الانسان ان هذه الاشياء لا تعمل ولا تعطي نتاجها الا بعد توفر وحصول اسبابها.

وامام هذه النتيجة يسئل الانسان نفسه هل ان هذه الاسباب متوقف عليها مسبباتها لها قوى عاقلة مدركة لتعمل على بصيرة ذاتية تعطي نتائجها من غير تقصيراً أو عجز(18). ام ان هناك تلازماً ثابتا لا ينفك البتة بحيث لا يمكن أن ينفرد هذا التلازم بحال من الاحوال؟

فان ملنا للأول فقد اثبتنا ان للطبيعة دخل في نواميس الكون في اثر ما والا لزم ان يستغني ذلك الاثر عن الله عز وجل كيف وهو الذي يفتقر اليه كل ما سواه(19).

وان ملنا للثاني فأننا سنصطدم مع واقع الحال المرير المشاهد من خوارق العادات كمعجزات الانبياء(20). (عليهم السلام) وكرامات(21). الاولياء(22). (رضي الله عنهم) فواقع الحال يشهد تخلف السبب عن المسبب فالنار لم تحرق ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾الانبياء/ 69 والامثلة في هذا المجال كثيرة.

ومن جانب اخر رأينا المسببات حصلت بدون مباشرة اسبابها المعتادة كخلق عيسى من غير أن يتوسط السبب الطبيعي لوجوده وهو الزوج، فعلى هذا لا يمكن ان نقول: ان القدرة الالهية تفتقر في صلاحيتها الى وساطة بحيث اذا لم توجد تلك الوساطة لا تصلح تلك القدرة للإحاطة بكل المقدرات فذلك محال على الله لأن الاقتصار والاحتياج نقص ولا يليق ذلك بذاته جل وعلا. اذن قانون الاسباب والمسببات خاضع لسيطرة الإرادة الالهية الشاملة وهي اي الإرادة صفه قديمة قائمه بالذات تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه(23). من وجوده وعدم مقدور وزمان ومكان وجهة هذه الإرادة هي التي توجهت حصل الأمر المراد وألا فلا قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ يس/82).

فعلى هذا نصل الى القول بأن الإرادة الإلهية هي التي توجهت الى ابراهيم الخليل(عليه السلام) فسلبت من النار الاحراق وتوجهت الى مريم الصديقة فولدت عيسى من غير زوج عليه (الصلاة والسلام) وهكذا...

وقد يشعر الانسان لرؤيته ارتباط الاشياء ببعضها البعض بوجود العلة(24). أو السببية بين تلك الأشياء لكن في الحقيقة ما أطلق عليه من انه سبب وعله فأنه لا يقصد به إلا السبب التي جرت العادة بأن يخلق الله الفعل عقبها.

قال العلامة سعد الدين التفتازاني (رضي الله عنه) (25). في مقاصده (لما كان الموجد عندنا هو الله تعالى وحده كان معنى العلة من الممكنات ماجرت العادة بخلق الشيء عقبه وقد ظهر أن لله تعالى أن يخرق هذه العوائد متى شاء فلا يأتي بالمسببات عقب تلك الاسباب)(26).

فالله هو الشافي بخلق الشفاء عقب اخذ الدواء وله جلاله خرق ذلك، بأن يشفي من غير دواء أو يستمد الداء حتى بعد أخذ الدواء وكذلك في النار والاكل والشرب فليس من طبع النار الإحراق وليس من طبع الطعام الإشباع وليس من طبع الماء الإرواء ولكن شاءت أرادة الله أن يترتب هكذا فكانت كما أراد الله (27).

فلا عله بين الكائنات ولا معلول ولا تأثير شيء في شيء وانما الكون كله معلول لعلة واحدة هي أرادة الله وان كان الناظر في الكائنات يرى بينها ارتباطاً وتناسباً وانسجاماً يخيَّل له عليه بعضها لبعض أو تولد بعضها من بعض. وسببية بعضها لبعض. وهذا ما ذهب اليه المعتزلة له (28) القائلون بأن العبد موجد فعل نفسه فالفعل يولد أفعالاً أخرى وهي من ايجاد العبد نفسه فمثلاً حركة اليد تولد حركة المفتاح المولد فتح الباب وهذا مايسمى بنظرية التوليد.

فالأمر في الحقيقة راجع الى القدرة المطلقة و الإرادة الربانية فلا السيف يقطع ولا الضرب يوجع من نفسه بل كل ذلك آثار يخلقها الله تعالى فلهذا ليس بمستحيل ولا عسير على الله ان يبرد بالنار ويحرق بالثلج لان الفعل الحقيقي لا للنار ولا للثلج بل أرادة الله هي الفاعلة مع اننا لا ننكر المناسبة المشهورة بين النار والاحراق وبين الثلج والبرودة ولكن نقول انها مناسبات وضعية لا تدل على أكثر من عاده كونيه وله جل جلاله متى شاء أن يقطع تلك المناسبات أو يغيرها فهي ليست مستحيلة الانفكاك بل الأمر أمره يتصرف كيف يشاء (29).

المبحث الثاني/الاسباب في القرآن الكريم

المطلب الاول/ صلة فعل العبد بالأسباب العادية الجعلية

ظهر لنا من خلال عرض أراء بعض المتكلمين أن أكثرهم متفوقون على انه ما من خالق ألا الله، فهو الخالق القائل: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾(الصافات/96) وتقدير الكلام خالق لعبده ولعلمه، وفي ذلك رد على المعتزلة في قولهم بان العبد يخلق أفعال نفسه الاختيارية، واما الافعال الاضطرارية فهي مخلوقه لله اتفاقا.

وعلى رأي اهل السنة بأن الكل مخلوق لله نريد أن نحدد قانون الاسباب والمسببات ـ باعتبار الاسباب اسبابا جعليه ـ بفعل العبد واين تتجلى لنا علاقة الاسباب والمسببات بفعل العبد على ان الاسباب وما يوهم بوجود العلية التامة في الاشياء ماهي الا تلائم وائتلاف جعلي جعله الله مستودعا لحكمه جل جلاله، فليس النار إلا سببا جعليا للإحراق، لان الله هو الذي يخلق الاحراق عقب وجودها، ولو لم يشأ جل جلاله ان يخلقها لما احرقت فليس النار حارقة بطبعها.

نرجع الى صلب ما نحن فيه من انجلاء قانون الاسباب والمسببات وجريانه مع فعل العبد المخلوق وهذا ما سنوضحهُ من خلال احد الامثلة الكثيرة المشهورة بين العلماء ومنها ما ذكره الامام الغزالي (رضي الله عنه)(30). في التهافت فقال : (الري والشرب، والشبع والاكل، والاحراق والالقاء بالنار، والنور وطلوع الشمس، والموت وجزر الرقبة، والشفاء وشرب الدواء، واسهال البطن واستعمال المسهل، والنظر في هذه الامور وهلم جرا(31). والنظر الخارجة العصر يطول فلنعطي مثالا واحدا، وهو الاحتراق في القطن مثلا عند ملاقاة النار فأن تجوز وقوع الملاقاة بينهما دون الاحتراق، أو تجوز حدوث انقلاب القطن رمادا محترقا، دون بينهما دون الاحتراق وليس النار ما هو إلا سببا جعليا لصيرورة القطن رمادا.

وهكذا عند ملاقاة السكين لقطعة لحم، فأن الله جعل وجود السكين سببا عاديا جعليا لقطع تلك القطعة من اللحم، والسبب الحقيقي هي الارادة والقدرة المطلقة فأن اراد الله أن يقطع تلك القطعة فأن السبب العادي موجود لكن ليس هو المؤثر، بل أن القطع والتأثير يكون تبعا لقوه الارادة والقدرة الالهية، وهكذا في كل المتلازمات التي توهم بوجود السبب والعلية، وإذا أطلقنا لفظ الجعلية فليس معناها إلا خلق الثاني عقب خلق الاول خلقا مطردا بحيث لا يكون المجعول الأول علة للمجعول

الثاني، الا بالنسبة الى ما يظهر لنا لا بالنسبة إلى الجاعل الخالق لكل منها فهو غير ملزم بالترتيب الواقع(32).

المطلب الثاني/ النسبة الحاصلة بين فعل الله وفعل العبد

قبل الكلام في ثنايا هذا الموضوع لا بد من الوقوف عند حد(33). الحقيقة والمجاز فنقول:

حد الحقيقة: هو لفظ مستعمل فيما وضع له اولا، وخرج بالمستعمل المهمل، وبما وضع له الغلط، وخرج بـ (أولا) المجاز لأنه وضع بوضع ثاني، وتنقسم الى:

1. لغوية، كالأسد للحيوان المفترس.
2. عُرفية، بأن وضعها اهل العرف العام كالراية لذات الحوافر مع أن حقيقتها لغة، كل ما يدل على الارض سواء اكان له حافر اولا، ويعبر بعضهم بذات القوائم الاربعة.

أو وضعها اهل العرف الخاص(بعلم معين) كالنحاة حينما اطلقوا لفظ الفاعل بأسم معروف عندهم وهو ما قام بالفعل.

3. شرعية، بأن وضعها الشارع كالصلاة، ومعناها اللغوي الدعاء لكن الشارع قيدها بمفهوم: أفعال وأقوال مبتداه بالتكبير ومختتمه بالتسليم(34).

وحد المجاز: هو لفظ المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة مع قرينة دالة على عدم ارادة المعنى الاصلي، والمجاز من احسن الوسائل البيانية التي بها يتضح المعنى، اذ به يخرج المعنى متصفا بصفة حسية تكاد تعرضه على اعيان السامع، لهذا فشغفت العرب باستعمال الجهاز لميلها إلى الاتساع في الكلام، والى الدلالة على كثرة معاني الالفاظ ولما فيها من الدقة في التعبير، فيحصل للنفس به سرور واريحية(35).

وسمي بالمجاز لأنه يجاوز معلة الموضوع له الى غيره، لمناسبة بينهما اما من حيث القرب أو المجاورة كاسم الأسد للرجل الشجاع.

والمجاز اما مرسل أو استعارة لأن العلاقة المصححة له ما أن تكون مشابهة المنقول الية عنه في شيء، واما ان تكون غيرها، فأن كان الاول فيسمى استعارة، وان كان الثاني فيسمى مرسلا، كلفظ اليد استعملت للدلالة على النعمة(36).

والذي يهمنا من بين اقسام المجاز في هذا المطلب هو المجاز العقلي، ويسمى الاسناد المجازي أو مجازا حكميا أو مجاز الاسناد، وهو اسناد الفعل، أو ما في معناه الى غير ما وضع له لخلافه(37). مع قرينة(38). مانعة من ارادة الاسناد الى ما هو له على حقيقته، ولهذا النوع من المجازات علاقات شتى منها ملابسته للفاعلية كقولنا سيل معهم أي مملوء، فاسند مفهم وهو مبني للمفعول الى ضمير السيل وهو فاعل، وكذلك ملابسته للزمان والمكان ولوقوعه في نحو(صام نهاره) وملابسته للمصدر، جد جده ويلائم السبب نحو بنى الامير المدينة وهي سبب لوجود البناء الأباني

حقيقية(39). ولقد جاء المجاز العقلي في مواطن كثيرة من القران الكريم وذلك لان العرب كثير ما استعملوا المجاز العقلي والقران جاء على لغة العرب.

وحتى يمكن لنا أن نحدد نسبة الفاعل الحقيقي من الفاعل المجازي لا بد من أن نستغرق بعض من الآيات التي تبين تلك النسبة:

*فعند قوله تعالى ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴿٢﴾ الانفال/2.

يتوقف الانسان معتقدا أن الذي يزيد في الايمان هو الله ولكن الله اسند الزيادة في الآيات الكريمات على طريقة المجاز العقلي، لأنها سبب في الزيادة.

*ومن المعلوم أن الله هو من يحول الاعيان والاشياء ويتصرف بها ويصرفها كيف يشاء، لكنه جل جلاله نسب الفعل لغير نفسه فقال ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾المزمل/17.

*وفي مسألة الهداية يعلمنا الله أنه هو الهادي ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ﴿٥٦﴾ القصص /56. فهو خالق الهداية وموجدها، وخلق الهداية خاص به ولهذا انفاه عن نبيه بقوله﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ﴿٥٦﴾ القصص/ 56.

وقد تسند الهداية على طريقة المجاز الى غيره فتكون بمعنى مغاير للمعنى الاول وهو انه سبب لإيصال الهداية ومن تلك الاسباب القران ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴿٩﴾ الاسراء/9، ومن اعظم اسباب الهداية هدية الحبيب محمد صلى الله عليه واله وسلم للناس ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ الشورى/52.

ومن الامثلة الاخرى على ذلك خلق الملائكة وإجراء كلمة الله في خلقهم، وجعل الله لهم اعمالا وافعالا يتجاوزونها ويفعلون ما يؤمرون به، فبين لنا الحق أن منهم من وكلهم الله تعالى لقبض الارواح بدلالة قوله تعالى ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴿١١﴾السجدة /11، ولكن هذه النسبة مجازيه وإلا الذي يميت هو الله تعالى بدلالة قوله عز وجل ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴿٤٢﴾الزمر/42.

*ومنه قوله تعالى ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴿١٧﴾الانفال/17 فأخبر الله تعالى انه رمى وان نبيه رمى، فأثبت تعالى لنبيه الرمي، ونفاه عنه معاً وبالضرورة ندرك ان كلام الله عز وجل لا يتناقض، فعلمنا ان الرمي الذي رماه الله عز وجل عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو غير الرمي إلي أثبته له فله نسبة الخلق وهي حركة الرمي وسير الرمي ونفيها، وللنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) نسبة ظهور حركة الرمي وهكذا في قوله تعالى﴿ إِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ (القيامة/18) ، مع أن القارئ لهذه الآية كان جبريل (عليه السلام) وغيرها الكثير من الآيات التي لا توجب الشركة لاستعماله اجتماع مؤثرين على اثر واحد، فأسناد الفعل لله على سبيل الاختراع والايجاد، واسناد الفعل للعبد تبعا لكونه المثل الذي خلق فيه القدرة بعد ان خلق فيه الارادة، بعد ان خلق فيه العلم، فارتباط

القدرة بالإرادة، والحركة بالقدرة ارتباط المعلول بالعلة، اذا كان المعلول عاقلا، والا فهو من ترتب المسببات على اسبابها، فصح أن يسمى كل ما له ارتباط بقدرة فاعلا، كيفما كان ذلك الارتباط(40).

المطلب الثالث/ الاخذ بالأسباب والتوكل

ان الاخذ بالأسباب مع الاعتقاد بان الله هو محقق النتيجة وموجدها، لا؟؟ التوكل ابدا.

فليس في الاسلام كتاب أو سنة أو سيرة سلف يقر ذلك المعنى للتوكل بل هو الاخذ بالأسباب والاعتماد كليا على الله، فالمريض عليه البحث عن اسباب شفائه وهو الطب والدواء لكن عليه ان يعلم ان الشافي هو الله(41). وأن الله ربط بين الطب والدواء وبين الشفاء ربطا جعليا عاديا يخلق الله عقب هذا السبب المسبب والنتيجة وهي الشفاء وله ان يخرج هذا فيشفي من غير طب ودواء، ولا يشفي بعد الطب والدواء ولو اننا عطلنا الاسباب في مثل تلك الحالة، احتجاجا بحديث الذين يدخلون الجنة بغير حساب المتقدم، للزم ان تكون العشرات من الاحاديث النبوية في الدواء والاستشفاء؟؟؟ جزافا وحاشا النبي (صلى الله عليه واله وسلم) ان ينطق عبثا: وان قيل من قبل انسان ان هذه الوصفة الدوائية قد كتبت لي الشفاء، فعلى تقدير المجاز في الاسناد اي هذه الوصفة سبب في شفائي، فالطبيب معالج والله الشافي، والمعالج عرضة للصواب والخطاء، ولما يظن ضانا ان عمل المعالج يناقض قضاء أو يؤخذ قدرا بل هو سبب ليس الا(42). وهكذا لمن طلب الولد ولمن اراد الزراعة ولمن ارادة حصول الشبع في نفسه وأمام طعام.

فمن اراد الولد وجب عليه ان يبادر بأسباب الزواج ومن اراد الزرع عليه تتبع اصول الفلاحة ومن اراد الشبع عليه مد يده وتناول الطعام، اما المقدمات فعلينا واما حصول النتائج فعلى الحق سبحانه وتعالى.

فالمتوكل من رعى الاسباب واعتمد على الوهاب، فهذا موسى(عليه السلام) حينما اراد لقاء العبد الصالح اصطحب غداءه وزاده، ومريم امرها الله ان تأخذ بالسبب لوجود التمر وامرها ان تهز جذع النخلة، وعلم الله داود صنعه لبوس تكون سبب دفاعي في الحرب ولم ينقص ذلك كله من مقام هؤلاء الانبياء والصديقين عليهم الصلاة والسلام اجمعين.

فالأسباب هي الابواب التي يطرقها المتوكلون ولكن طارق باب الملك يسأل حينئذ، هل تريد بطرقك الملك ام الباب فإذا اراد الملك فلا يقال لم طرقت اذن، لان الطرق طريق وسبب للوصول.

فالمتوكل لا يخدشه الاخذ بالسبب لقول النبي (صلى الله عليه واله سلم) لرجل اراد ان يترك ناقته ويدخل المسجد فقال له (اعقلها وتوكل)(43). والاسباب لا تنافي التوكل على الله ومما يلفت النظر ان النبي (صلى الله عليه واله وسلم) كان يأخذ الاحتياطات في الحرب ويعمل كل الوسائل التي يهتدي هو واصحابه اليها، ثم نرى من جهة اخرى ان القران يقرر صلاة الخوف في الحرب والنبي (صلى الله عليه واله وسلم) كان لا يُعيب على الذي يكسب من عمله ولا يكون عالة على غيره وكل

ذلك يصب في معنى واحد هو ان الدين امرنا بالأخذ بالأسباب فلا ينقص ذلك من اجر المتوكل شيء.

نتائج البحث

نستنتج من هذا البحث ما تيسر لنا من امور هي كالآتي

1. أن السببية المطلقة هي ارادة الله فلا علة تامة ولا معلول ولكن الكون كله معلول لإرادة الحق سبحانه.
2. أن خلق الوسائط ما يوهم بوجود السببية خلقها الله لحكم عظيمة اجلها أن يشعر الانسان باحتياجه إلى مدبره وخالقه.
3. لا مؤثر لأي مخلوق باي مخلوق الا بأذن الله فلولا ان ارادة الله تريد الاحراق لما احترقت النار واحرقت الاشياء ولما قطعت السكين الاشياء.
4. امكان حدوث خوارق العادات من معجزات وكرامات.
5. لا شيء في الكون فيه حسن وقبيح بل الحسن ما حسنه الشرع والقبيح ما قبحه اذ لا يستطيع العقل القاصر ان يتلمس مواطن الحسن والقبح في الاشياء فهما شرعيان.
6. مع ان الله خالق كل شيء فإذا اراد الانسان ان يفضل الخلق فعند ذكره للقاذورات يجب ان يذكرها بقرينه تأدب مع الله جل جلاله فلا يقول الله خالق الخنزير مثلا تأدبا مع الحق جل جلاله.
7. ان لوجود الشر حكما عظيما لعل من اجلها هو تمييز الصالح من الطالح والخبيث من الطيب.
8. ان الانسان مقيد في حريته وحر في تقيده من جهة مسير ومن جهة مخير.
9. ان العدل الالهي جعل للإنسان حريه للاختيار فأعماله ليس كأعمال الطبيعة بل جعل له الحرية التي بها يتعلق الثواب والعقاب.
10. ان افضل المناهج هو المنهج الوسط الذي تمثل بالا شاعرة (رضي الله عنهم) فقد تخلصوا بنظرية الكسب من مأزق خطير وقعت الفرق الكلامية الاخرى فيه.
11. ان الله هو خالق افعال العباد فلا يمكن تصوير خالق مع الله جل جلاله.
12. لا يمكن ان نرتقي بالإنسان ناسين حدوده المرسومة لنجعل منه خالقا لفعله كما قالت المعتزلة ولا ان نحط به الى دون مرتبه الجماد فيكون كالريشة في مهب الريح كما قالت الجبرية بل لا بد من المسلك الوسط هو النجاة اذ لا افراط ولا تفريط.

13. ان وصف الحق بأنه هو الفاعل يختلف عن وصفنا بأن العبد أو الوساطة هي الفاعلة لأن الحق اعتبار فعله حقيقة وفعل الوساطة مجازي، لذلك فلا ضير في نسبة الفعل لغير فاعله مجازا.
14. ان المجاز من استعمال العرب فلا يجوز توبيخ من استعمل هذه الصيغة فضلا عن رميه بالكفر أو اتباع لان اسلامه قرينة على انه لم يرد الا المجاز.
15. وجود ملاحظة اتزان قانون تلازم الاسباب والمسببات لكونه مفضيا الى القول بالماديات البحتة ان لم يكن هناك علم بأن نواميس الكون عادية.
16. ان الاخذ بالأسباب لا ينفي كون الانسان متوكلا.
17. اهمية مقام التوكل عند الصوفية واختلاف استعداداتهم نحوه فلذلك اختلفت اقوالهم في تعريفه.
18. ان القول بالتوليد يجر الانسان بالقول ان العبد مستقل بفعله وتوابع فعله.
19. وجوب الاعتقاد بأن التلازم بين الاسباب والمسببات عادي ليمكن لنا تصور تخلف السبب وتحقق خوارق العادات.

تم البحث ولله الحمد

الهوامش

1- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجواهري: (145/1).
2- ينظر القاموس المحيط للفيروز أبادي: (81/1) وينظر لسان العرب، لابن منظور(1910/3).
3- حاشية العلامة البناني على متن جمع الجوامع للسبكي: (94/1).
4- المصدر نفسه: (94/1).
5- سلم الوصول الى الاصول ، محمد سعد الحبيجي: (8).
6- نهاية الإقدام في علم الكلام، للشهرستاني: (215).
7- ينظر السبط العبقري، نولانا خالد: (109).
8- ينظر المواقف، للإيجي: (181/8-184).

9- ينظر المصدر نفسه: (189).

10- السبط العبقري: (109).

11- الاجماع: هو العزم على امر من جماعة اهل الحل والعقد وهم جماعة المجتهدين من امه سيدنا محمد (صلى الله عليه واله وسلم). وينظر ارشاد الفحول للشوكاني: (71). وجمع الجوامع لشمس الدين المحلي: (176/2).

12- ينظر المسامرة بشرح المسايرة، لأبي شريف المقدسي: (3/2).

13- التفكير :– هو تصدق القلب من معاني الاشياء لدرك المطلوب. التعريفات، للجرجاني: (194).

14- بنظر فرقان القران، سلامه العزمي: (25).

15- البصر:– هو قوه مودوعة في العصبتين الجوفيتين اللتين تتلاقيان ثم تفترقان فتدرك العين بها الاضواء والالوان والاشكال. شرح العقائد النسفية: (15). وينظر التعريفات للجرجاني: (936).

16- السمع:– هو قوة مودوعة في العصب المفروش في مقعر الدماغ تدرك بها الاصوات بطريق وصول الهواء المكيف بكيفية الصوت الى الدماغ. شرح العقائد النفسية: (15). وينظر التعريفات للجرجاني: (912).

17- الذوق:– قوه مثبتة في العصب المفروش على جرم اللسان تدرك بها الطعوم بمخالطة الرطوبة اللعابية في الفم بالمطعوم ووصولها الى العصب. شرح العقائد النفسية: (15). وينظر التعريفات: (107).

18- ينظر القضاء والقدر، عبد الكريم الغيب: (155).

19- حاشية الباجوري على السنوسية: (49).

20- المعجزة:– أمر خارق للعادة تظهر على يد الأنبياء قصد به اظهار صدق من ادعى انه رسول الله شرح المقاصد: (175/2). وينظر الموقف: (547). وفيه تعريفات اخرى.

21- الكرامة:– امر خارق للعادة تظهر على يد الولي، غير مقترنة بدعوى النبوة. لوامع الانوار: (397/2).

22- الولي هو العارف بالله تعالى وصفاته بحسب ما يمكن المواظب على الطاعات، المجتنب عن المعاصي، المعترض عن الانهماك في اللذات والشهوات، شرح العقائد النفسية: (139). وشرح المقاصد: (203/2). ولوامع الانوار: (397/2). وفيه ذكر شرط الولي. وحجه الله على العالمين نحو معجزات سيد المرسلين. واليواقيت والجواهر: (160/1–162).

23- ينظر تحفة المريد في شرح جوهرة التوحيد للباجوري: (76).

24- العلة:– ما يتوقف عليه وجود الشيء ويكون خارجا عنه ومؤثرا فيه. التعريفات: (154).

25- سعد الدين التفتازاني: وهو سعد الدين بن مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني عالم بالنحو والتعريفات والمعاني والبيان والمنطق ولد سنة(712هـ) بتفتازان وقد تقدم نحو العلوم حتى انتهت اليه معرفة العلوم والرياسة بالمشرق توفي سنة (792هـ). ينظر شذرات الذهب في اخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي: (319/6).

26- شرح المقاصد، لسعد الدين التقتازني: (223/4).

27- ينظر الشهيد للباقلاني: (56–57).

28- المعتزلة:– هم مدرسة كلامية راسخة ظهرت ونشأت في البصرة وهم اتباع واصل بن عطاء الذي خالف استاذه الحسن البصري في بعض المسائل الكلامية واشهرها مسألة مرتكب الكبيرة، ينظر الفرق بين الفرق، للبغدادي: (60).

29- موقف العقل والعلم من رب العامين وعباده المرسلين، مصطفى صبري: (19/3).

30- الغزالي:– هو ابو حامد محمد بن محمد الامام حجة الاسلام الغزالي الطوسي الشافعي ولد سنة(450هـ) له مصنفات عديدة في شتى العلوم منها احياء علوم الدين وغيرها. ينظر هداية العارفين في أسماءالكتب والمؤلفين واثار المصنفين، اسماعيل باشا: (79/2). وينظر شذرات الذهب: (10/4).ووفيات الاعيان، ابن خلكان: (216/4).

31- تهافت الفلاسفة، الغزالي: (239).

32- موقف العقل والعلم، مصطفى صبري: (20).

33- الحد، ما به الاشتراك في الشيء والامتياز.

34- سلم الوصول: (29).

35- ينظر جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، احمد الهاشمي: (231).

36- ينظر التعريفات، للجرجاني: (203).

37- شيء يستصعب الاول الثاني كالعلية والمصاديق، ينظر التعريفات، للجرجاني: (157).

38- القرينة:– هو امر يشير الى المطلوب، ينظر التعريفات، للجرجاني: (154).

39- ينظر جواهر البلاغة، للهاشمي: (42).

40- ينظر الملل والنحل، للشهرستانيي: (76–77). وينظر مفاهيم يجب ان تصلح، محمد العلوي: (87).

41- ما هو التصوف: (99).

42- فتاوي الشيخ محمد متولي الشعراوي: (81/1).

43- رواة الترمذي: (4/ 668). واخراجه ابن حيان: (510/2). والحكم في مستدركه.

المصادر والمراجع

*القران الكريم.
1- ارشاد الفحول الى تحقيق الحق في علم الاصول/ للامام محمد بن على بن محمد الشوكاني، (ب-ط)، دار الفكر، بيروت، (ب-ت).
2- تحفة المريدفي شرح جوهرة التوحيد/ الشيخ ابراهيم بن محمد الباجوري، (ب-ط)، مطبعة عبد الله الخليلي، دار الكتب العلمية، بيروت، (ب-ت).
3- التعريفات/ السيد الشريف الجرجاني، (ت816هـ)، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983.
4- تهافت الفلاسفة/ للامام ابي حامد الغزالي،تحقيق: د. سليمان دنيا، دار المعارف بمصر، (ب-ت).
5- جمع الجوامع وشرحه/ للعلامة شمس الدين المحلي، مع حاشية العلامة البناني، ط1، مطبعة البابي الحلبي واولاده (1356هـ-1937م).
6- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع/ تأليف السيد احمد الهاشمي،ط6، دار الكتب العلمية، بيروت، (ب-ت).
7-حاشية الباجوري على السنوسية/ محمد بن يوسف السنوسي مع متن السنوسية، (ب-ط)، مطبعة الاستقامة، (ب-ت).
8- حاشية العلامة البناني على متن جمع الجوامع للسبكي، (ب-ط)، مطبعة دار احياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي، (ب-ت).
9- السبط العبقري/ تأليف نولانا خالد، (ب-ط)، (ب-ت).
10- سلم الوصول الى علم الاصول في توحيد الله واتباع الرسول/ العلامة الشيخ حافظ بن احمد الحكمي، (ب-ط)، (ب-ت).
11- سنن الترمذي/ ابو عيسى الترمذي السلمي(ت279هـ)، تحقيق: احمد محمد شاكر واخرون، (ب-ط)، (ب-ت).
12- شذرات الذهب في اخبار من ذهب/ ابن العماد الحنبلي، (ب-ط)، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ودار الكتب العلمية، بيروت، (ب-ت).
13- شرح العقائد النسفية/ الشيخ سعد الدين التفتازاني (ت792هـ)، تحقيق: د. احمد حجازي السقا، ط1، مطبعة مورفتلي ،مصر، (1407هـ -1987م).
14-شرح المقاصد/ الشيخ سعد الدين مسعود التفتازاني، تحقيق وتعليق: د. عبد الرحمن عميرة، ط1، عالم الكتب، بيروت، 1989.
15- الشهيد/ الامام القاضي ابي بكر محمد الباقلاني، عني بتصحيحه ونشره الاب ريتشرد يوسف مكارثي اليسوعي، (ب-ط)، المكتبة الشرقية، بيروت، 1957.

16- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية/ الشيخ اسماعيل بن حماد الجواهري، تحقيق: احمد عبد الغفور عطار، ط2، 1982.
17- الصحيح/محمد بن حيان التميمي، تحقيق: شعيب الارنؤوط،ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1414هـ .
18- فتاوى الشيخ محمد متولي الشعراوي،(ب-ط)، دار التربية، بغداد، (ب-ت).
19- فرقان القران/ الشيخ سلامة العزامي، وهو مطبوع بهامش الاسماء والصفات للبهيفي، (ب-ط)، دار احياء التراث العربي، بيروت، (ب-ت).
20- الفرق بين الفِرق/ الامام عبد القاهر البغدادي، (ب-ط)، القاهرة،1948.
21- الفرق بين الفِرق/ الامام عبد القاهر البغدادي، (ب-ط)، دار الجيل ودار الافاق الجديدة، بيروت، (1408هـ - 1987م).
22- القاموس المحيط/ مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز ابادي، ط4، مطبعة دار المأمون المكتبة التجارية، 1938.
23- القضاء والقدر/ عبد الكريم الغيب، (ب-ط)، دار المعارف للطباعة والنشر والتوزيع مصر، (ب-ت).
24- لوامع الانوار البهية وسواطع الاسرار الاثرية بشرح الدرة المضنية في عقد الفرقة المرضية/محمد بن احمد السفاريني الاثري الحنبلي، مطابع دار الاصفهاني وشركائه، جده، 1380هـ.
25- ما هو التصوف/ الشيخ محمد سعد الحبيجي، مفتي الشافعية في حلب، ط3، المطبعة العربية، حلب باب النضر، 1384هـ.
26- المسايرة شرح المسامرة/ للكمال بن الهمام(ت861هـ)، ط2، مطبعة السعادة بمصر، 1347هـ.
27- المستدرك على الصحيحين/ ابو عبد الله الحافظ محمد بن عبد الله الحاكم النسيابوري(ت405هـ)، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا، ط1، دار لكتب العلمية، بيروت، 1411هـ.
28- الملل والنحل/ محمد بن عبد الكريم الشهرستاني(ت548هـ)، تحقيق: محمد سعد كيلاني، ط1، دار المعرفة، بيروت، 1404هـ.
29- مفاهيم يجب ان تصحح/ الشيخ محمد العلوي المالكي، (ب-ط)، دار الفجر للطباعة، ابو ظبي، (ب-ت).
30- المواقف/ الشيخ عضد الدين الايجي، شرح السيد الشريف الجرجاني، ط1، مطبعة السعادة، مصر، 1325هـ.
31- موقف العقل والعلم من رب العالمين وعباده المرسلين/ مصطفى صبري،(ب-ط)، مطبعة المكتبة الاسلامية، (ب-ت).

32- نهاية الاقدام في علم الكلام/ عبد الكريم الشهرستاني، حرره وصححه الفرد جيوم ، (ب–ط)، منشورات مكتبة المثنى، بغداد، (ب–ت).

33- هديه العارفين في اسماء الكتب والمؤلفين واثار المصطفين/ اسماعيل باشا البغدادي(ت1920)، (ب–ط)، المطبعة البهية، استنبول، 1951.

34- وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان/ ابي العباس احمد بن محمد بن ابي بكر بن خلكان(ت681هـ)، تحقيق: د. احسان عباس، ط1، دار الثقافة، بيروت، 1968.

35- اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الاكابر/ عبد الوهاب الشعراني(ت983هـ)، (ب–ط)، (ب–م)، مصر،1959.